وهذا ما يحدث بالفعل لبعض من الناس في لحظات الضيق ؛ فتضيق ذات أيٍّ منهم عن حَمْل ذاته ، وكأن الواحدَ منهم له ذاتان ؛ وكأن الواحد منهم له صورتان ؛ الصورة التي تُزيِّن الشهوة ؛ وحين تزيد عن الحَدِّ يعود إلى صورة كَارِه الشهوة ؛ وهو لا يسعَدُ في الحالتين ؛ عشق الشهوة وكراهيتها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ (١) وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾

وهنا نجد تصعيداً للحوار ؛ فبعد أنْ كان من المتبوعين والتابعين ؛ نجد هذا الارتقاء في الحوار ليكون بين الشيطان وبين البشر . ونلحظ أن الحق سبحانه هنا بالحال الذي يدور فيه الحوار وهو انقضاء الأمر(٢) ؛ حيث تقرَّر الوَضْع النهائي لكل شيء ؛

---

(١) المصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . والمصرخ : الذي يزيل سبب الصُّريخ وسبب الصُّراخ. [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٦٩٣) : « معنى ﴿لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] أي : حُصِّل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار » .

ولا نقاشَ في أيّ أمر ، ولا فرصةَ للتراجع عما حدثَ .

وقضاءُ الأمـر يعني أن يذهب كل إنسان إلى مصيـره ، فمَنْ كان من أهل الجنة دخلهـا ؛ ومَنْ كان من أهل النار دخلـها ؛ فقـد وصلتْ الأمور إلى حَدِّها النهائي الذي لا تتغير من بعده .

ويفضح الشيطان نفسه فيقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ووَعْـد الله حَقٌّ ، لأنه وَعْد مـمَّنْ يملك ؛ أمـا وَعْد الشـيطان فقـد اخـتلف ؛ لأنه وَعْـد بمـا لا يملك ؛ لذلك هو وَعْـد كـاذب ؛ لأن الحق سبحانه هو الأمر الثابت الذي لا يتغير .

وحين تَعد أنت - الإنسان - إنساناً آخـر بخير قادم ؛ فهل تضمن أنْ تُواتيك ظروفك على أن تُحقِّق له هذا الأمر ؟

ولذلك يوصينا الحق سـبحانه أن نقـول « إن شاء الله »[1] وبذلك نردّ الوَعْد لله ؛ فهو وحده الذي يمكنه أنْ يَعدَ ويُنفِّذ ما يعد به .

وعلى الواحـد منا أنْ يحـميَ نفسـه من الكذب ، وأن يقـول « إن شاء الله » فـإنْ لم تسـتطع أنْ تحققَ مـا وعدت به تكون قـد حمـيتَ نفسك من أنْ تُلقى اتهاماً بالكذب .

ونجد الشيطان وهو يقول في الآخرة :

﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) وذلك في قولـه تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] .

ذلك أن وَعْده باطل ؛ والباطل لَجْلج[1] ، وحين تحكم به الآن تُثبت لك الوقائع عكسه ، وتجعلك لا تصدق ما حكمتَ به .

ولذلك نجد الحق سبحانه يوضح لنا المسافة بين الحق والباطل فيقول :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[2] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وهكذا يحاول الشيطان أن يُبرِّىء نفسه رغم علْمه أنه قد وعد ، وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به ؛ ولذلك يحاول أن يلصق التهمة بِمَنْ اتبعوه مثله مثل أولئك الذين قالوا :

﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

فيقول الشيطان من بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والسلطان ـ كما نعلم ـ إما سلطانَ قَهْر أو سلطانَ إقناع . وسلطان القَهْر يعني أن يملك أحدٌ من القوة ما يقهر به غيره على أنْ يفعلَ ما يكره ، بينما يكون كارهاً للفعل .

---

(١) اللجلجة : أن يتكلم الرجل بلسان غير بيّن . واللجلجة والتلجلج : التردد في الكلام . واللجلج : المختلط الذي ليس بمستقيم . والحق أبلج ، أي : مضيء مستقيم . [لسان العرب ـ مادة : لجج] .

(٢) جفأ الوادي غثاءه : رمى بالزَّبَد والقذى . واسم الزبد : الجفاء . والجفاء : الباطل . [لسان العرب ـ مادة : جفأ] .

أما سلطان الحجة فهو أن يملك منطقاً يجعلك تعمل وفق ما يطلبه منك وتحب ما تفعل ، وهكذا يعترف الشيطان للبشر يوم الحشر الأعظم ؛ ويقول : أريد أنْ أناقشكم ؛ هل كان لى سلطان قَهْرىّ أقهركم به ؟ هل كان لى سلطان إقناع أقنعكم به على اتباع طريقى ؟

لم يكن لى فى دنياكم هذه ولا تلك ، فلا تتهمونى ولا تجعلونى « شماعة » تُعلِّقون علىّ أخطاءكم ؛ فقد غويتُ من قبلكم وخالفتُ أمر ربى ؛ ولم يكن لى عليكم سلطان سوى أن دعوتُكم فاستجبتم لى .

وكل ما كان لى عندكم أنِّى حرَّكْتُ فيكم نوازع أنفسكم ، وتحرَّكت نوازع أنفسكم من بعد ذلك لِتُقبلوا على المعصية .

إذن : فالشيطان إما أنْ يُحرِّك نوازع النفس ؛ أو يترك النفس تتحرك بنوازعها إلى المعصية ؛ وهى كافية لذلك .

وسبق أنْ أوضحتُ كيف تُعْرف المعصية ، إن كانت من الشيطان تسويلاً استقلالياً أو تسويلاً تبعياً ؛ فإنْ وقفتْ النفس عند معصية بعينها ؛ وكلما أبعدها الإنسان تُلِح عليه ؛ فهذا هو ما تريده النفس من الإنسان حيث تطلب معصية بعينها .

أما نَزْغ[1] الشيطان فهو أن ينتقل الشيطان من معصية إلى أخرى محاولاً غواية الإنسان ؛ إنْ وجده رافضاً لمعصية ما ؛ انتقل بالغواية إلى غيرها ؛ لأن الشيطان يريد الإنسان عاصياً على أىِّ لَوْن ؛ فالمهم أنْ يعصى فقط ؛ لذلك يحاول أن يدخل إلى الإنسان من نقطة

---

(١) نزغه الشيطان : وسوس له بالشر . ونزغ ما بين الرجلين : أفسد ما بينهما . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٠] .

ضعفه ؛ فإنْ وجده قوياً فى ناحية اتجه إلى أخرى .

ويعلن الشيطان أنه ليس الملُوم على ذلك :

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

فالملُوم هنا هو مَنْ أقبل على المعصية ؛ لا مَنْ أغوى بها .

ويستمر الحق سبحانه فى فَضْح ما يقوله الشيطان لمَنْ أغواهم فى اليوم الآخر :

﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

هذا هو قَوْل الشيطان الذى سبق وأنْ تعالى على آدم لحظة أنْ طلب منه الحق سبحانه أن يسجدَ له مع الملائكة ؛ ولكن الموقف هنا هو التساوى بين الذين أغواهم وبينه ؛ فهو يعلن أنه لن ينفعهم وهم لن ينفعونه .

والمُصْرِخ من مادة الصُّراخ من صرخ ، وهو رَفْع الصوت بغرض أن يسمعه غيره ؛ ولا يطلب مَنْ يصرخ شيئاً آخر غير المعونة فلو أن أحداً عثر على كنز تحت قدميه فلن يصرخ ؛ بل يتلفَّت حوله ليرى : هل هناك مَنْ رآه أم لا ؟

أما إنْ هاجمه أسد فلا بُدَّ أن يصرخ طالباً النجاة ، وهكذا يكون الصراخ له مَأْرب طَلَبِ المعونة ؛ وهذا لا يتأتَّى إلا ممَّنْ يخاف من مُفزِع .

و « مُصرِخ » يدل على الفعل « أصرخ » ، وهو فعل دخلت عليه ما يُسمَّى فى اللغة « همزة الإزالة » . والمثل هو كلمة « معجم » أى : الذى يدلُّك على معنى لـلفظ لِيُزيلَ إبهامه ؛ فيقال « أعجم الكتاب » أى : أزال إبهامه ، وهذه الهمزة التى دخلتْ تُوضِّح إزالة العُجْمة عن الكلمة .

والمثل أيضاً على هذه الهمزة ؛ هو كلمة « عتب » أى : لامه ، وحين تدخل عليها الهمزة تصبح « أعتب » أى : أزال ما به عَتَب .

ونجد فى دعائه ﷺ قوله الشريف : « لك العُتْبى حتى ترضى »[1] .

أى : إذا كُنتَ يا ربِّ تعتب علىَّ فى أىِّ شىء ؛ فأنا أدعوك أن تُزيل هذا العتب .

وهكذا نجد أن الإزالة تأتى مرة بإضافة الهمزة ؛ ومرة تأتى بالتضعيف ؛ مثل قولنا « مرَّض الطبيب مريضه » أى : أزال عنه ـ بإذن من الله ـ مرضه .

إذن : « مُصْرِخ » هو مَنْ يُزيل صراخ آخر ؛ فكأن هناك مَن استغاث ؛ فجاءه مَنْ يُغيثه . وهكذا يعلن الشيطان فى اليوم الآخر أنه ومَنْ أغواهم فى مأزق ؛ وأنه غَيْر قادر على إزالة سبب هذا المأزق ؛ ولا هُمْ بقادرين على إزالة سبب مأزقه ؛ ولن يُغيث أحدهما الآخر .

(١) دعاء دعا به رسول الله ﷺ بعد إيذاء أهل الطائف له ، فقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى .. لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤١٥) ، وابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) .

ويضيف :

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

فأنتم أشركتمونى مع الله فى الطاعة ؛ حين استسلمتُم لغوايتى ؛ ولم تكونوا من عباد الله الـمُخْلَصين الذين أقسمتُ أنا بعزة الله ألاَّ أُغويهم[1] ؛ وكل منكم نفذ ما أغويته به ؛ فناديتكم واستجبتُم ؛ وناداكم الله فعصيتُم أو كفرتم . وصِرْتم مِثْلى ، فقد سبق لى أن أمرنى الله وعصيتُ .

ويقول الحق سبحانه ما يجيء على لسان الشيطان لمَنْ كفر وعصى :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

وهذه قضية عامة ، قضية الكفر فى القمة ، فكما أطعتُم الشيطان وجعلتموه شريكاً لله ؛ فها هو الشيطان يُخبركم بتقدير هذا الموقف ؛ بأنه شِرْك بالله ؛ وهو يعلن الكفر بهذا ؛ لأن يوم الحشر قد جاء ؛ وتحقق فيه قول الله له :

﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ[2] (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾ [الحجر]

وكان الشيطان من قبل اليوم المعلوم - وهو اليوم الآخر - يندسُّ

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] .

(٢) أنظره : أخَّره وأمهله وتأنَّى عليه . وقوله تعالى : ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾ [الأعراف] أى : أمهلنى وأخر حسابى وعقابى إلى يوم القيامة [القاموس القويم ٢/٢٧٣] .

ويُوسوس وينزغ ؛ أما فى ذلك اليوم فقد برز كل شىء من إنس وجن وكل الكائنات أمام الواحد القهار ، ولم يَعُدْ هناك ما يَخْفى عن العين .

وهذا ما خدعوا به أنفسهم ، وظنُّوا أنهم قادرون على أن يُخفوا ما فعلوه عن أعْيُن الله ؛ ولذلك نجد الحديث القدسى يقول :

« يا بنى آدم ، إنْ كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم ، فالخَلَل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنِّى أراكم فلِم جَعَلْتمونى أهونَ الناظرين إليكم » .

وأنت فى حياتك اليومية لا تجد مَنْ يسرق من آخر وجهاً لوجه ؛ ولا أحد يحرق بيت أحدٍ أمام عينيه ؛ فإنْ كنتم يا معشر البشر لا تفعلون ذلك مع بعضكم البعض ؛ فكيف تفعلون ذلك مع خالقكم ؛ فتعصونه .

وإنْ شككتُم أنه لا يراكم فالخلل فى إيمانكم ؛ وإنْ كنتم تعتقدون أنه يراكم فلا تجعلوه أهونَ الناظرين إليكم ، لأنه لو نظر إليك إنسان فأنت لا تجرؤ على أن تصنع له ما يكرهه .

ولذلك يقول الشيطان معترفاً ومُقِراً بأن الظالمين لهم عذاب أليم ، والظلم فى القمة هو الشرك بالله :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وحين نقرأ ذلك إما أنْ نأخذه على أنه إقرار من الشيطان ؛ أو نفهمه على أن الشيطان قد قال :

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه بعدها تلك القضية العامة :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

فبعد أن تكلم سبحانه عن بروز الخَلْق والكائنات ؛ ثم الحوار بين الضعفاء والسادة ؛ ثم الحوار بين الشيطان وبين أهل الكفر والمعصية ؛ يأتي بالقضية النهائية في الحكم :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

والمناسبات توحي بمقابلاتها ؛ لتكون النفس مُتشوِّقة ومُتقبِّلة لهذا المقابل ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣)﴾ [الانفطار]

ويأتي بعدها بالمقابل لها :

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

فكما جاء بمقابل الأشقياء ؛ لا بُدّ أن يفتح القلوب لتنعم بسعادة مصير وجزاء الذين سُعِدوا بالإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)﴾

وهنا جاء الفعل ، ويمكن نسبته إلى ثلاث جهات . ولكل جهة مَلْحظ ؛ فمرّة يُسنَد الفعل لله سبحانه ، ومرّة يُنسب الفعل للملائكة الذين يتلقوْن الأمر من الله بإدخال المؤمنين الجنة ؛ ومرّة للمؤمنين الذين يدخلون الجنة بإذن الله .

فالله أدخلهم إذْناً ؛ والملائكة المُوكَّلون فتحوا أبواب الجنة لهم ؛ والمؤمنون دخلوا بالفعل .

وهكذا يكون لكُلٍّ مَلْحظ .

وهناك قراءة أخرى للآية توضح ذلك :

« وأُدْخِلُ[1] الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة » والمتكلم هنا هو الله . ونلحظ أن الله قال هنا :

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ .. (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

لكي تضم كلمة « أدخل » أنه سبحانه أذن بدخولهم ؛ لأنه قال في نفس الآية :

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

وأن الملائكة المُكلّفين بذلك فتحوا لهم أبوابها . والمؤمنون دخلوها كل ذلك بإذن الله .

ونلحظ أن كُلَّ الكلام هنا عن الجنات ؛ فما هي الجنات ؟

(١) هذه قراءة الحسن « وأُدخِلُ » على الاستقبال والاستئناف . قاله القرطبي في تفسيره (٣٩٩٦/٥) .

ونقول : إن الجنة فى أصل اللغة هى السَّتْر ، ومنها الجنون أى : سَتْر العقل ، والمادة هى : الجيم والنون ، والجنة تستر مَنْ فيها بما فيها من أشجار كثيرة بحيث مَنْ يمشى فيها لا يظهر ؛ لأن أشجارها تستره .

أو : أن مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ؛ لأن كل خير فيها لا يُلجئه أن يخرج منها .

وتُطلق الجنات على ما فى الدنيا أيضاً ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. (٢٦٦) ﴾ [البقرة]

ولنا أن نعرف أن الجنةَ غَيْر المساكن التى فى الجنة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٧٢) ﴾ [التوبة]

والجنة - ولله المثَل الأعلى - هى الحديقة الواسعة ؛ وهذا الاتساع مُوزّع على كل مَرْأى عَيْن . والإنسان - بعجائب تكوينه - يُحب أن يتخصص فى مكان مرة ؛ ويحب أن ينتشر فى مكان مرة أخرى ؛ فيستأجر شقة أو يبنى لنفسه بيتاً مستقلاً « فيللا » . وفى البيت أو الفيللا يحب الإنسان أن تكون له حجرة خاصة لا يدخلها غيره .

والإنسان يُقيِّم الأشياء على هذا الأساس ؛ فينظر مَنْ يرغب فى شراء قطعة أرض ليبنى عليها بيتاً : أهى تُطلّ على حارة أم على شارع ؟ وهل سيستطيع أنْ يعلوَ بالبناء إلى عدة أدوار أم لا ؟ وهل

سيخصص قطعة من الأرض كحديقة أم لا ؟

فإنْ كانت الأرض تُطل على الفضاء ، فحساب المتر ليس بالثمن المدفوع فيه ؛ ولكن بقيمة ما يتيحه من اتساع أُفق وفضاء من مزارع أو على البحر مثلاً ، حيث لن يتطفلَ عليك أحدٌ فى هذا المكان .

والجنات بهذا الشكل التقريبى ؛ هى أماكن مُتسعة ، وكل مَنْ يدخلها له فيها مساكن طيبة ، تلك الجنات تجرى من تحتها الأنهار . ومَنْ يدخلونها :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ .. (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

ذلك أن الإنسان يحب التنعُّم ؛ ولكن كل تنعُّم فى الدنيا هناك ما يُنغِّصه ، وهل يدوم أم لا يدوم ؟ وكل منّا رأى أُناساً عاشت فى نعيم ؛ ثم نُزِع منها بحكم الأغيار ؛ أو تركوه بحكم الموت .

أما جنة الله ونعيمها فالأمر مختلف ؛ ذلك أن النعيم هناك لا يفوتُك ولا تفوته ؛ لأنه على قَدْر إمكانات ربِّك .

ونلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

يُوضِّح أن الخلودَ فى الجنة دائمٌ بإذن من الله .

ويتابع سبحانه :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

والتحية هو ما يواجه به الإنسان أخاه إثباتاً لسروره بلقائه ؛

ولذلك تأتى التحية على مقدار السرور ؛ فمرّة تكون التحية بمجرد رَفْع اليد دون مُصَافحة ؛ وقد لا تكتفى بذلك فى حالة ازدياد المعزَّة التى لصاحبك عندك ؛ فتصافحه ؛ وقد تأخذه فى أحضانك ، وهكذا ترتقى فى التحية ، وهى إعلانُ السرورِ باللقاء .

وتحيةُ الجنة هى السلام ؛ لأن السلام أمنٌ كل إنسان ؛ سلامٌ مع نفسك ؛ فلا تُكدِّرها بحديث النفس الذى يندم على ما فات ؛ أو الحُلْم بعمل قادم ، فالسلام فى الجنة لن تجد فيه مُنغِّصاتٍ من الماضى أو الحاضر أو المستقبل ؛ وتنسجم مع كل ما حولك فى الكون ؛ الجماد ؛ النبات ؛ البشر ؛ الملائكة .

ولذلك قال الحق سبحانه تذييلاً لهذه الآية :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) ﴾ . [إبراهيم]

وهذه أفضلُ نعمة ، وهى الحياة فى سلامٍ وأَمْن ، وبعد ذلك تدخُل الملائكة عليهم مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم[1] مِّن كُلِّ بَابٍ[2] (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد]

ثم يُلقَّون السلام الأعلى من الله ؛ وهو القائل :

﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

---

(١) قال سعيد بن جبير : يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله ما ليس لهم فى جنات عدن . [الدر المنثور ٤/٦٣٩] .

(٢) عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٤) .

وبعد أن شرح الحق سبحانه أحوال أهل القُرْب والسعادة ، وأهل البُعْد والشقاء ، أراد عز وجل أن يضرب لنا مثلاً يوضح فيه الفارق بين منهج السعداء الذين عاشوا بمنهج الله ، ومنهج الأشقياء الذين اتبعوا مناهج شتى غير منهج الله ، فقال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا(١) ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا(٢) كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

والمَثَل هو الشيء الذي يوضح بالجلي الخفي . وأنت تقول لصديق لك : هل رأيتَ فلاناً ؟ فيقول لك : لا لم أرَه ؛ فتقول له : إنه يُشبه صديقنا علان . وهكذا توضح أنت مَنْ خَفِي عن مُخَيلة صديقك بمَنْ هو واضح الصورة في مُخَيلته . .

والحق - سبحانه وتعالى - يضرب لنا الأمثال بالأمور المُحسَّة ، كي ينقل المعاني إلى أذهاننا ؛ لأن الإنسان له إلْفٌ بالمُحسِّ ؛ وإدراكات حواسه تعطيه أموراً حسية أولاً ، ثم تحقق له المعاني بعد ذلك .

---

(١) أصل الشيء : أساسه وقاعدته التي يقوم عليها ويكون في أسفله . [القاموس القويم ٢١/١] .

(٢) الأكل : ثمر النخل والشجر ، وكل ما يؤكل فهو أكل . [لسان العرب - مادة : أكل] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا..(٢٦)﴾

[البقرة]

وقد قال الكافرون : أيضرب الحق مثلاً ببعوضة ؟ ذلك أنهم لم يعرفوا أن البعوضة لها حياة ، وفيها حركة كأىِّ كائن ؛ وتركيبها التشريحى يتشابه مع التركيب التشريحى لكل الأحياء فى التفاصيل ؛ ويؤدى كل الوظائف الحيوية المطلوبة منه .

ولا أحدَ غير الدارسين لعلم الحشرات يمكن أن يعرف كيف تتنفس ، أو كيف تهضم طعامها ؛ ولا كيفية وجود جهاز دموىّ فيها ؛ أو مكان الغُدد الخاصة بها ؛ وهى حشرة دقيقة الصنع .

وهو سبحانه ضرب الأمثال الكثيرة ليُوضِّح الأمر الخفىّ بأمر جلىّ . ومن بعد ذلك ينتشر المثل بين الناس . ونقول : إن كلمة « ضرب » مثلها مثل « ضرب العملة » ، وكان الناس قديماً يأتون بقطع من الفضة أو الذهب ويُشكِّلونها بقدْر وشكْل مُحدَّد لتدُل على قيمة ما ، وتصير بذلك عُمْلة متداولة ، ويُقَال ـ أيضاً ـ « ضُرِب فى مصر » أى : اعتمد وصار أمراً واقعاً . وكذلك المثل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً .

والمثل الذى يضربه الحق سبحانه هنا هو الكلمة الطيبة ؛ ولها أربع خصائص :

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ..(٢٤)﴾ [إبراهيم]

أى : تعطيك طيباً تستريح له نفسُك ؛ إما منظراً أو رائحة أو ثماراً ؛ أو كُل ذلك مجتمعاً ؛ فقوله :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يُوحى بأن كُلّ الحواس تجد فيها ما يُريحها ؛ وكلمة « طيبة » مأخوذة من الطِّيب فى جميع وسائل الإحساس .

فالخاصية الأولى ، أنها شجرة طيبة ، أما الخاصية الثانية فهى أن أصلها ثابت ، كإيمان المؤمن المحب ، والثالثة أن فروعها فى السماء ، وهذا دليل أيضاً على ثبات الأصل وطيب منبتها .

أما الخاصية الرابعة فهى أن تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، أى : فيها عطاء المدد الذى لا يعرف الحد ولا العدد ، وهى تدل على صفات المؤمنين المحبين .

وبما أنها شجرة طيبة ؛ فهى كائن نباتىّ لا بُدّ لها من أن تتغذّى لتحفظ مُقوِّمات حياتها . ومُقوِّمات حياة النبات توجد فى الأرض ، فإنْ كانت الشجرة مُخَلْخَلة وغير ثابتة فهى لن تستطيع أن تأخذ غذاءها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن تلك الشجرة :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

وكلنا نظن أن الشجرة تأخذ غذاءها من الجذور فقط ؛ ولكن الحقيقة العلمية تؤكد أن الشجرة تأخذ خمسة بالمائة من غذائها عَبْر

الجذور ؛ والباقى تأخذه من الهواء ، وكلما كان الهواء نظيفاً فالشجرة تنمو بأقصى ما فيها من طاقة حتى تكاد أن تبلغ فروعها السماء .

أما إنْ كانت البيئة غيرَ نظيفة وملَوّثة ؛ فالهواء يكون غيرَ نظيف بما لا يسمح للشجرة أن تنمو النمو المناسب ؛ فتمُرُّ الأغيار غير المناسبة على الشجرة ، فلا تستخلص منها الغذاء المناسب ، ولا تنمو النمو المناسب .

اللهم إلا إذا نزل عليها المطر فيغسل أوراقها .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ.. (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يعنى : أنها تأخذ من الأرض .

وقوله :

﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ.. (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يُبيِّن أنها تأخذ من أعلى .

ويتابع سبحانه :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ.. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

والأُكُل هو ما يُؤْكل ويُتمتَّع به ، ولكنّا لا نأخذ المعنى هنا على ما يُؤْكل بالفم فقط ؛ ذلك أن هناك أشجاراً ونباتات طيبة ؛ لأن مزاجَ الكون العام يتطلبها ؛ فالظل مثلاً يُستفاد منه ؛ وكذلك هناك أشجار يتفاعل وجودها مع الأثير ؛ ويأخذ منها رائحة طيبة .

والمثل فى ذلك : الطفل البدوىّ الذى شاهد نخيل جيرانه مثمراً بالبلح ، ولكن النخلة التى يملكونها غير مثمرة ، وتساءل : لماذا ؟ وذهب ليقطعها ، فلحقه والده ومنعه من ذلك، وقال له : إن نخلتنا هى الذكر الذى يُنتج اللقاح اللازم لبقية النخيل كى تثمر .

ولذلك فأنا لا أوافق المفسرين الذين ذهبوا إلى تفسير قوله الحق :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ .. (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

بأنها مثل شجرة التفاح وغيرها من الأشجار المثمرة ؛ ذلك أن كل شجرة حتى ولو كانت شجرة حَنْظل فهى طيبة بفائدتها التى أودعها الحق إياها ؛ فشجرة الحنظل نأخذ منها دواءً - قد يكون مرير الطَّعْم - لكنه يشفى بعضاً من الأمراض بإذن الله .

ذلك أن كل ما هو موصوف بشجرة له مهمة طيِّبة فى هذا الكون . وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

يدلُّنا على أن هناك قدراً مشتركاً بين الشجر كله ؛ مثمراً بما نراه من فاكهة أو غير ذلك .

وقد نبَّهنا العلْم الحديث إلى أن كل خُضْرة إنما تُنَقِّى الجو بما تأخذ منه من ثانىَ أوكسيد الكربون ، وبما تضيف لنا من أوكسجين ؛ وتستمر الخضرة فى ذلك نهاراً ؛ وتقلب مهمتها بإرسال ثانى أوكسيد الكربون ليلاً وامتصاص الأوكسجين ، وكأنها مُبَرْمجة على فَهْم أن النهار يقتضى الحركة .

ويحتاج الكائن الحى فيه إلى المزيد من وقود الحركة وهو الأوكسجين ؛ والإنسان أثناء الحركة يستهلك كمية كبيرة من

الأوكسجين ؛ ونجد مَنْ يصعد سلّماً ينهج لأن رئتيه تحاولان امتصاص أكبر قَدْر من الأوكسجين ليؤكسد الدم ، وينتج الطاقة اللازمة للصعود . وهكذا نجد كل خُضْرة إنما تقوم بوظائف محددة لها سلفاً من قِبَل الخالق الأعلى .

ولذلك اختلف العلماء عند تفسير :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

فمنهم مَنْ قال : إن « الحين » يُطْلق على اللحظة ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ[1] ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الواقعة]

وقال مُفسِّر[2] آخر : إن « الحين » يُقصد به الصباح والمساء ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الروم]

وأقول : فلننتبه إلى أن « الحين » هو الوقت الذى يحين فيه المقدور ؛ فإذا كان الحين هو لحظة بلوغ الرُّوح إلى الحُلْقوم ؛ فهذه اللحظة هى المراد بـ « الحين » هنا ، وإذا كان المقصود بها زمناً

---

(١) الحلقوم : الحلق . وهو علمياً الآن : هو تجويف خلف تجويف الفم وفيه ست فتحات : فتحة الفم ، وفتحتا المنخرين ، وفتحتا الأذنين ، وفتحة الحنجرة ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المرىء ، أما النفَس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة . [القاموس القويم ١/١٦٧] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٩٨) أقوالاً : « قال الربيع : « كل حين » غدوة وعشية . وقاله ابن عباس . وقال الضحاك : كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفاً يؤكل فى جميع الأوقات » . ثم قال : « وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة ، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره » .

أطول من ذلك ؛ صباحاً أو مساء ؛ فهذا الزمن ينسحب عليه معنى الحين .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة]

والبأس يعنى الحرب ؛ ومُدة الحرب قد تطول . وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) ﴾ [الأعراف]

وهكذا يكون معنى « الحين » هنا هو الأجل غير المُسمّى الذى يمتد إلى أن تتبدّل الأرضُ غيرَ الأرض والسماء غير السماء . إذن : فلا يوجد توقيت مُحدد المدة يمكن أن نُحدد به معنى « حين » .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وضَرْب المثل معناه إيقاع شىء صغير ليدل على شىء كبير ؛ أو بشىء جلىّ ليدل على شىء خفىّ ؛ ليُقرِّب المعنويات إلى وسائل الإدراكات الأولى ، وهى مُدْركات الحِسِّ من سمع وبصر وبقية وسائل الإدراك .

وحين تأتى المعانى التى تناسب الطموح العقلى ؛ فالإنسان يتجاوز مرحلة الحِسِّ إلى المعلومات المعنوية ؛ فيقربها الحق سبحانه بأن يضرب لنا الأمثال التى توصل لنا المعنى المطلوب إيصاله .

والحق سبحانه لا يستحى ـ كما قال ـ أنْ يضربَ مثلاً بالبعوضة وما فوقها[1] . والبعض من المستشرقين يقول : ولماذا لم يَقُلْ « وما تحتها » ؟ .

ونقول لمَنْ يقول ذلك : أنت لم تفهم اللغة العربية ؛ لذلك لم تستقبل القرآن بالملَكة العربية ؛ ذلك أن المَثل يُضرَب بالشيء الدقيق ؛ وما فوق الدقيق هو الأدقُّ .

والحق سبحانه يضرب لنا المَثل للحياة الدنيا ، وهى الحياة التى من لَدُن خَلْق الله للإنسان ؛ ذلك أنه كانت هناك أجناسٌ أخرى قبل الإنسان ، وهو سبحانه هنا يُوضِّح لنا بالمثَل ما يخص الحياة من لحظة خَلْق آدم إلى أنْ تقومَ الساعة ، وهو يطويها ـ تلك الحياة الطويلة العريضة التى تستغرق أعمار أجيالٍ ـ ويعطيها لنا فى صورة مَثَلٍ موجز ، فيقول لنا :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[2] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

---

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٦٤) : « معنى الآية أنه تعالى لا يستنكف أن يضرب مثلاً ما أى مثل كان بأى شىء كان صغيراً أو كبيراً ، وما ههنا للتقليل . وقال الربيع بن أنس : هذا مثل ضربه الله للدنيا ، أن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل فى القرآن إذا امتلأوا من الدنيا رياً أخذهم الله عند ذلك ».

(٢) الهشيم : النبت اليابس المتكسر ، وهو ما يبس من الورق وتكسر وتحطم ، فبلغ الغاية فى اليبس حتى بلغ أن يُجمع . [لسان العرب ـ مادة : هشم] .

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة كلها فى هذا المثل من ماء ينزل ونبات ينمو لينضج ثم تذروه[1] الرياح .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ[2] أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ[3] فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. (٢٠)﴾ [الحديد]

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة الدنيا بطُولها وعَرْضها فى هذا المَثل البسيط لنرى ما يُوضِّح لنا المعانى الخفية فى صورة مُحسَّة بحيث يستطيع العقل الفطرى أن يُدرِك ما يريده الله منها .

ونعلم أن المُحسَّات تدرك أولاً بعض الأشياء ؛ ثم ترتقى إلى مرتبة التخيُّل ؛ ثم يأتى التوهُّم ؛ فمراحل الإدراك للأشياء الخفية هى الحس أولاً ؛ ثم التخيل ثانياً ؛ ثم التوهم ثالثاً .

والتخيُّل هو أن تجمع صورة كلية ليس لها وجود فى الخارج ؛ وإنْ كانت مُكوَّنة من مادة وأشياء موجودة فى هذا الخارج . والمَثل على ذلك هو قول الشاعر الذى أراد أنْ يصف الوَشْم على يد حبيبته ، فقال :

---

(١) ذرا الهواء الشيء يذروه ذرواً : أطاره وبدده . [القاموس القويم ١/٢٤٣] .

(٢) الغيث : المطر . قال تعالى : ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ .. (٢٠)﴾ [الحديد] يحتمل أنه كمثل مطر أعجب الكفار ما خرج بسببه من نبات ، ويحتمل أنه كزرع أعجب الكفار نموه ونباته . [القاموس القويم ٢/٦٥] .

(٣) أهاجت الريح النبت : أيبسته . أى جعلته جافاً قد ذهبت رطوبته . [لسان العرب - مادة : هيج] .

خـــوض كـأنَّ بَنـانَهــــا ... فى نَقْشـه الوَشْم المُـزرد[1]

سَـــمكٌ مـن البِلّـــور فى ... شَـبكٍ تكوّن من زَبرجَـــد[2]

وحين تبحث فى الصـورة الكليـة لتلك الأبيـات من الشعـر ؛ لن تجـدها مـوجـودة فى الواقع ؛ ولكـن الشـاعـر أوجـدها من مُكوِّنات ومُفْـردات موجودة فى الواقع ؛ فالسـمك موجود ومـعروف ؛ والبلُّور موجود ومعروف ؛ وكذلك الشَّبك والزبرجد ، وقام الشاعر بنسج تلك الصورة غير المـوجودة من أشياء موجودة بالفـعل ، وهذا هو الخيال الذى يُقرِّب المعنى .

والتوهُّم يختلف عـن الخيال ؛ فإذا كان التـخيُّل هو تكوين صورة غير موجودة فى الواقع من مفردات موجودة فى هذا الواقع ؛ فالتوهُّم هو صـورة غـيـر موجـودة فى الواقع ، ومُـكوَّن من مـفردات غـيـر موجودة فى الواقع .

والحق سبحانه يقول لنا عن الجنة :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ .. (٧١) ﴾ [الزخرف]

ويشرح الرسول ﷺ ذلك بمذكرة تفسيرية ، فيقول : « فيها مَا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خَطَر على قَلْب بشر »[3] .

---

(١) الخوضـة : اللؤلؤة . والبنان : أطراف الأصابـع . والزَّرْد : هو تداخل حلق الدرع بعضـها فى بعض كالشبكة .

(٢) الزبرجد : الزمرد . [لسان العرب ـ مادة : زبرجد] .

(٣) أخرج مـسلم فى صـحيحه (٢٨٢٤) من حـديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قـال الله عز وجل : وأعددت لعـبادى الصالحـين ما لا عين رأت ، ولا أذن سـمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] » .

والعَيْن وسيلة إدراك وحسٌّ ؛ وكذلك الأذن ، أما ما لا يخطر على القلب فهو ليشرحه الخيال أو الوَهْم .

وهكذا نعلم لماذا يضرب الله لنا الأمثال ؛ ليُوجِز لنا ما يشرح ويُوضِّح بأشياء قريبة من الفهم البشرى .

وأنت حين تريد أن تكتب لصديق ؛ فقد تُمسك الورقة والقلم وتُدبِّج رسالة طويلة ؛ ولكن إنْ كنتَ تملك وقتك فستحاول أنْ تُركِّز كل المعانى فى كلمات قليلة .

وكلنا يذكر ما كتبه سعد زغلول[١] زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية لواحد من أصدقائه بعد أن سطَّر له رسالة فى خمس صفحات ؛ وأنهاها : « إنى أعتذر عن الإطالة فى الخطاب ، فلم يكُنْ عندى وقت للإيجاز » وذلك لأن مَنْ يُوجِز إنما يضع معانى كثيرة فى كلمات قليلة .

وحين طلب أحد القادة المسلمين النُّصْرة من خالد بن الوليد ؛ وكان القائد الذى يطلب المساعدة مُحَاصَراً ؛ وأرسل لخالد بن الوليد كلمتين اثنتين « إياك أريد » ، وهكذا اختصر القائد المحاصر ما يرغب إيصاله إلى مَنْ ينجده ، بإيجاز شديد .

والشاعر يقول :

إذَا أرادَ الله نَشْــرَ فَضِيلَة ... طُـويَتْ أتاحَ لَهَا لِسَـانَ حَسُـود
لَوْلاَ اشْتعالُ النَّارِ فيمَا جَاورَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَف طِيبُ عَرْف[٢] العودِ

---

(١) هو : سعد إبراهيم زغلول ، ولد فى « إبيانة » من قرى « الغربية » عام ١٨٥٧م تعلم فى كتّاب القرية ، ودخل الأزهر ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، تولى وزارة المعارف ووزارة الحقانية (العدل) ، أصبح رمزاً للثورة بعد نفيه إلى مالطة . توفى بالقاهرة عام (١٩٢٧م) . [الأعلام للزركلى ٨٣/٣] عن ٧٠ عاماً .

(٢) العرف : الريح : طيبة كانت أو خبيثة . وقال ابن سيده : العرف ، الرائحة الطيبة والمنتنة . [لسان العرب ـ مادة : عرف] .

أى : أنه إذا كانت هناك فضيلة مكتومة نسيها الناس ؛ فالحقُّ سبحانه يتيح لها لسانَ حاسدٍ حاقد ليثرثر وينبش ويُنقِّب ؛ لتظهر وتنجلى ؛ مثلما يُوضَعُ خشب العود ـ وهو من أرْقَى ألوان البخور ـ فى النار ، فينتشر عِطْره بين الناس .

وهكذا ضرب الشاعر المَثَل ليُوضِّح أمراً ما للقارىء أو السامع .

ويقول الشاعر ضارباً المَثَل أيضاً :

وإذَا امْرؤٌ مدحَ امْرءًا لِنَوالِه[1] وَأَطَالَ فِيه فَقَدْ أطَالَ هِجَاءَهُ

لَوْ لَمْ يُقدِّر فيه بُعْد المُسْتقَى عند الوُرودِ لَمَا أطَالَ رِشَاءَهُ[2]

والمقاييس العادية تقول : إن المرء حين يمدح أحداً لفترة طويلة ، فهذا يعنى الرِّفْعة والمجد للممدوح . ولكن حين يقرأ أحدٌ قول هذا الشاعر قد يتعجَّب ويندهش ، ولكنه يتوقف عند قول الشاعر أن الماء لو كان قريباً فى البئر ؛ لأخرجه العطشان بدلو مربوط بحبل قصير ؛ ولكن إنْ كان الماء على بُعْد مسافة فى البئر فهذا يقتضى حبلاً طويلاً لينزل الدلو إلى الماء .

وهذا يعنى أن طول المدح إنما يُعبِّر عن فظاظة الممدوح الذى لا يستجيب إلا بالثناء الطويل ؛ ولو كان الممدوح كريماً حقاً لاكتفى بكلمة أو كلمتين فى مدحه .

---

(١) النوال : العطاء . وأناله معروفه ونوَّله : أعطاه معروفه . [لسان العرب ـ مادة : نول] .

(٢) الورود : الحضور والوصول للماء لتشرب . والرشاء : الحبل . يُوصل به إلى الماء فى البئر كما يوصل بالرشوة إلى ما يطلب من الأشياء . [لسان العرب ـ مادة : رشو] .